الفصل الثالث

آراء أهل

المدينة الفاضلة

للفارابي

تمرُّ بالمرء ساعات يقول فيها إن أمراً ما « أفقده وعيه » أو إن « شدَّة الصدمة حالت بينه وبين الكلام » ؛ والواقع أن كلتى العبارتين متناقضتان ؛ ذلك لأننا فى بعض الأحوال نجد أن الصدمة تشحذ شعورنا وتحملنا على التفوه بعبارات وكلمات تصف الوضع الذى نحن فيه . وفى بعض الأحيان ، عندما تجرح عواطفنا ، أو يُعبث بآرائنا ، أو يُسخر من أقوالنا ، نقف مفكرين بعض الوقت . وقد تكون خبرتنا فى الحياة وشؤونها قد بلوناها بهذه الواسطة ؛ وقد تكون معرفتنا بأسباب تلك الحياة قد اكتسبناها بتلك الوسيلة ؛ وقد تكون كل الفلسفة فى العالم قد نشأت على هذا الوجه . ولعلَّ خير الأمثلة على ذلك أن أفلاطون وأرسطو لم يكتبا ما كتباه بطريق الصدفة عندما كان العصر الهلِّينى يشهد التطوُّر الذى أدَّى إلى دمج الدويلات اليونانية فى امبراطورية عامة موحَّدة ؛ وأن سانت أوغسطين قد أخرج للوجود كتابه فى فلسفة التاريخ إبَّان انحطاط الامبراطورية الرومانية وتدهورها ؛ وأن ابن خلدون كتب « مقدمته » فى التاريخ فى أظلم عصور التاريخ الاسلامى ؛ وأن سقوط تفاحة عرضاً قد أيقظ نيوتن من سِنته وجعله يضع بحث الجاذبية ، أو جعله - كما يقول جون تيندل [1] - « يسير

---

1 - John Tyndell

من تفاحة سقطت إلى قمر هوى »

عندما نشاهد أوضاعاً تنقلب ، وأنظمة تتغير ، وعلاقات ألفناها زمناً ما تضطرب ، يعترينا ، بادئ الرأى ، قلق شديد يحملنا على التفكير فيما آل إليه الحال : أسباب ونتائج ، فالحاجة أم الاختراع ، لا فى الشؤون العملية فحسب ، بل فى ميدان العقل ومضمار الفكر أيضاً . إذ أنه لا بد من ضرورة ملحّة لحمل الناس على اختراع آلة جديدة ؛ وكذلك لا بدّ من تغيير كبير فى سلوك الانسان ، وفى أساليب حياته لتغيير المذاهب الفكرية للمجتمع . وعلى هذا فان خير زمن لدراسة الجماعات الانسانية هو الزمن الذى يُصيبها فيه التطور . ذلك لأن الاستقرار النسبى للنظام الاجتماعى لا بد أن يضطرب حينذاك ؛ ولا بد كذلك أن تنشأ حالة ارتباك وتشوش واضطراب ، من تلك الحالات التى تصحب التطور عادة ؛ وكل هذه الأمور تستدعى فحص الافتراضات التى قامت عليها أركان المجتمع الانسانى على ضوء الأوضاع الجديدة . وقد يزيد كل ذلك فى الفرص المؤاتية لاكتشافات جديدة .

لقد كان الانسان منذ عرفه التاريخ فى حالة تطور مستمر دائم ، وكانت تقع أحداث طبيعية ومصطنعة تؤثر فى أوضاع الحياة البشرية ، ينتج عنها إما عرقلة حركات التطور إلى أجل مسمى ؛ أو تزويدها بقوى دافعة تسير بها قدُما فى مضمارهـــا . وقد حدث أن كثيراً من الرجال الذين كتبوا التاريخ بأعمالهم قد شهدوا نهاية عصر وولادة عصر آخر . وقد كانت دائما تتصادم قوتان : قوة تعمل على توحيد المجهود الانسانى عامة ، وتنفير الأمم والشعوب من العُزْلة ؛ وقوة تعمل على التفريق بين الناس كافة هى سبب أو نتيجة للخلاف والعداوة والبغضاء المتأصلة فى النفوس الانسانية . وقد وقعت أحداث حاسمة فى تاريخ النوع الانسانى فى أزمنة مختلفة ، ووجد فى كل زمن فلاسفة وعلماء حاولوا فحص حياة المجتمع وتحليلها للوصول الى

معرفة أسباب الحوادث ومدى تأثيرها فى النظام الاجتماعى . من هؤلاء العلماء الفيلسوف المسلم الملقب بالمعلم الثانى أبو نصر الفارابى . فقد وقعت فى زمانه أحداث كثيرة فى بلاد الخلافة الاسلامية ـ من فتن داخلية الى خروج العمال والامراء على الخليفة والاستقلال بالمقاطعات التى تحت إمرتهم دونه وارتباطهم بدار الخلافة برباط اسمىّ ؛ ومن تحكم الوزراء ورؤساء الجند بشخص الخليفة ، إلى مهاجمة الروم لأطراف بلاد الخلافة . لاحظ أبو نصر التطور الشديد الذى أصاب العالم الاسلامى فى أوضاعه والتغير الذى نزل بأساليب الحكم ونظامه ، فخدا به شعور فياض ممزوج بتقدير العجز الملازم للمساعى الإنسانية ، الى التساؤل عما اذا كانت هنالك مشكلة حقيقية تحتاج الى بحث فى أسبابها ونتائجها وفى وضع دواء ناجع لحلها .

إن من الظواهر المألوفة فى أيام الأزمات أن بعض المسائل قد تنجلى وتتكشف لعدد قليل من الناس ، ولكن عدداً وفيراً من هؤلاء قد يضع لها حلا معقولا فى آن واحد . وقد يتصور المفكر المعزول عن المجتمع والمستقل عن الجماعة أنه هو الوحيد الذى يشعر بجوهر المسألة الأساسية ، وهو فى الواقع قد غاب عنه أنه يعيش فى محيط اجتماعى عام ، وأنه يشارك الجماعة ، من قريب أو من بعيد ، فى شعورها العام وخبرتها الخاصة ، وفى حركتها الاجتماعية . إن حياة المجتمع المادية والعقلية والروحية على السواء تتخذ لذاتها صورة وحدة تامة لا تنفصم عراها ؛ وإننا فى تحليلنا لعقلية عبقرى فذ ، أو لعالم موهوب ، أو لزعيم اجتماعى خالد نجد أنفسنا مسوقين بالضرورة إلى ارجاع أسباب نبوغ هؤلاء الى المحيط الذى نشأوا فيه والى البيئة التى عاشوا فيها . أما قولنا « انه لا جديد تحت الشمس » فهو يشير فى الواقع الى أنه يمكن ارجاع جل الأمور الى أصول قديمة لها بقدر ما تسمح بذلك المعرفة الإنسانية .

بهذه المقدمة القصيرة نتقدم لدراسة كتاب أبي نصر المعروف « بآراء أهل المدينة الفاضلة » الذى حاول فيه أن يتصدّى لبحث حالة المجتمع الإسلامى فى أيامه .

ولد أبو نصر فى النصف الثانى من القرن الثالث وتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع للهجرة ؛ وأصله « من مدينة فاراب فيما وراء النهر ، فيلسوف المسلمين غير مدافع ، دخل العراق واستوطن بغداد ، وقرأ بها من العلم الحكمى على يوحنا بن جيلاء المتوفى بمدينة السلام فى أيام المقتدر واستفاد منه وبرز فى ذلك على أقرانه وأربى عليهم فى التحقيق واشتهرت تصانيفه . . التى منها كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المبدّلة والمدينة الضالة . ابتدأ بتأليفه ببغداد وحمله الى الشام فى آخر سنة ٣٣٠ هـ وأتمه بدمشق سنة ٣٣١ [١] . »

ويتألف هذا الكتاب من ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الأول يبحث فى بعض أركان الفلسفة الإلهية كما عرفت فى أيامه ؛ والقسم الثانى يبحث فى المدينة الفاضلة وأهلها ؛ والقسم الثالث يبحث فى أضداد المدينة الفاضلة وهى المدينة الجاهلية والمدينة الفاسقة والمدينة المتبدلة والمدينة الضالة .

إن فلسفة الفارابى فى « آراء أهل المدينة الفاضلة » تتألف من فلسفة افلاطون وأرسطو وأفلوطين زعيم الأفلاطونية الجديدة . واليك بعض آرائه :

« القول فى الموجود الأول : الموجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات كلها ، وهو برئ من جميع أنحاء النقص ؛ وكل ما سواه فليس يخلو من أن يكون فيه شئ من أنحاء النقص ، إما واحد وإما أكثر . .

---

١ ـ ص ٥ كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، الطبعة الاولى ـ بمطبعة النيل ـ القاهرة .

وهو أزلى دائم الوجود بجوهره وذاته من غير أن يكون به حاجة فى أن يكون أزلياً الى شىء آخر يمدّ بقاءه . . . وهو الموجود الذى لا يمكن أن يكون له سبب به أو عنه أو له كان وجودُه فانه ليس بمادة ولا قوامه فى مادة ولا فى موضوع أصلا ... وليست له صورة ، لأن الصورة لا يمكن أن تكون إلا فى مادة ... [١] »

والموجود الأول هو الله واجب الوجود . لقد رفع أفلاطون وأرسطو وافلوطين الله جل وعلا فوق الكائنات وقالوا بموجودين أزليين ، واجبى الوجود — فى رأيهم — : هما الله ، والمادة ! فلم يميزوا بين الخالق والمخلوق . ولكن الفارابى أثبت الوجود المطلق لله تبارك وتعالى [٢] .

« القول فى كيفية صدور جميع الموجودات عنه - بالفيض : والأول هو الذى عنه وُجد ، ومتى وجد للأول الوجود الذى هو له ، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات ... التى وجودها انما هو على جهة فيض وجوده لوجود شىء آخر ؛ وعلى أن وجود غيره فائض عن وجوده هو [٣] .

ويفيض من الأول وجود العقل الثانى (الذى يفيض عن واجب الوجود) والسماء الأولى ؛

ويفيض من الثانى وجود العقل الثالث وكرة الكواكب الثابتة ؛

ويفيض من الثالث وجود العقل الرابع وكرة زحل ؛

ويفيض من الرابع وجود العقل الخامس وكرة المشترى ؛

---

١ - آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٢

٢ - الفارابى تأليف الخورى الياس فرح ، ص ٥٨

٣ - آراء أهل المدينة الفاضلة ص ١٧

ويفيض من الخامس وجود العقل السادس وكرة المريخ ؛

ويفيض من السادس وجود العقل السابع وكرة الشمس ؛

ويفيض من السابع وجود العقل الثامن وكرة الزهرة ؛

ويفيض من الثامن وجود العقل التاسع وكرة عطارد ؛

ويفيض من التاسع وجود العقل العاشر والعقل الفعال وكرة القمر ؛

ويفيض من العاشر وجود حادى عشر ، وهذا الحادى عشر هو أيضاً وجوده لا فى مادة وهو يعقـــل ذاته ويعقل الأول ولكن عنده منتهى الوجود الذى لا يحتاج ما يوجد ذلك الوجود الى مادة وموضوع أصلاً وهى الأشياء المفارقة التى هى فى جواهرها عقول ومعقولات . وعند كرة القمر ينتهى وجود الأشياء السماوية وهى التى بطبيعتها تتحرك دوراً [١] » . « وأول نتيجة لفيض العقل الفعال هى توليد العناصر الأربعة : الماء والهواء والنار والتراب [٢] » والعقل الفعال هو الذى يعطى العقل الهيولانى الذى هو بالقوة عقل شيئاً ما بمنزلة الضوء الذى تعطيه الشمس البصر [٣] .

والنتيجة أن الفارابى شرح الفيض وتسلسل الكائنات عن المبدع الأول على طريقة افلوطين زعيم الافلاطونية الجـــديدة ، ولكن نظرية الفيض

---

١ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٢٥ .

٢ ـ الفارابى ص ٦٢ .

٣ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٦٢ .

نفسها هى له ، وقال بالخلق من لا شىء توكيداً للعقيدة الاسلامية [١] »

« السعادة : وهى الخـــير المطلوب لذاته وليست تطلب أصلا ولا فى وقت من الأوقات لينال بها شىء آخر يمكن أن يناله الانسان أعظم منهـا . وهى أن تصير نفس الإنسان من الكمال فى الوجود الى حيث لا تحتـاج فى

---

١ — « وهذه النظرية فى الفيض هى للفارابى دون غيره ممن سبقه من الفلاسفة . وهى لم تعرف لدى أرسطو ، وقد كانت السبب فى اتجاه الفلاسفة من بعده الى القول « بأن النفوس الانسانية تفيض من آخر العقول السماوية ، وتتلخص فى أن الخلق لا يتم دفعة واحدة وإنما يفيض عن الله سبحانه عقل أول ، ثم يفيض عن هذا العقل عقل ثان وثالث ورابع وهكذا حتى ينتهى الفيض الى عشرة عقول ، آخرها العقل الفعال ، وهذا عند الفارابى واهب الصور ، والمصدر الذى تفيض منه صور الجماد والنبات والحيوان والنفوس الانسانية .

وقد اخذ الفارابى عن افلاطون فكرة التصوف العقلى فقال مثله بأن المعرفة الحقة هى السبيل الى خلاص النفوس من سجنها وعودتها الى عالمها العلوى .

واخذ عن أرسطو فكرة ان النفوس الانسانية صور لاجسامها ، وان المادة هى السبب الوحيد الذى يؤدى الى اختلاف الافراد فيما بينهم .

ومن ثم ذهب الى رأى غريب يقول بأن النفوس لما كانت صورا للاجسام فانها تتحد بعد خروجها منها بسبب زوال السبب فى اختلافها فتصبح نفسا كلية وتنقسم ثلاثة أنواع : منها ما اذا فارقت اجسامها اتحدت وسعدت ، وكلما جاءها فوج آخر من جنسها اتحد بها وزادت سعادتها ، ومنها نفوس تشقى ويزداد شقاؤها كلمـــا انضمت الى بعضها ، ومنها نفوس غير كاملة لانها تحتاج الى الجسم وتبقى مثقلة به ، فاذا جاء الموت انحلت اجسامها ، وفنيت هى . »

من كلمة فى جريدة الاهرام بتاريخ ١٨ اغسطس سنة ١٩٥٠
للاستاذ مصطفى سليم

قوامها إلى مادة وذلك أن تصير فى جملة الأشياء البريئة عن الأجسام وفى جملة الجواهر المفارقة للمواد » .

ولنبحث الآن فى القسم الثانى من الكتاب ـ المدينة الفاضلة وأهلها :

لقد عاصر الفارابى العهد الذى ابتدأ فيه أفول الامبراطورية العربية فى عهد العباسيين . « فكانت شمال افريقيا إمارة مستقلة تحت الحاكم الذى أسس دولة الأغالبة والذى جعل منصبه وراثياً فى أسرته ، واستقلت ولاية إثر الأخرى بسرعة فاقتطعت مصر وسوريا من الامبراطورية وأسست دول مختلفة فى فارس وأصبحت سلطة الخليفة العباسى لا تكاد تتعدّى تخوم مدينة بغداد ، بينما أصبح الخليفة نفسه تحت رحمة جيوشه الأجنبية التركية الفوضوية المتمردة ، فخُلع الخليفة المقتدر مرتين ، وفى نهاية حكمه المخجل الموسوم بسكر شديد وانهماك فى الشهوات والتبذير ، قُتل فى مناوشة مع أحد قواده فشُكّ رأسه فى رمح وترك جسمه ملقى على الأرض حيث سقط[1] » .

« وسمت الخطة التى تدهورت اليها الخلافة خلال هذا الحكم بالانشقاق الكبير الذى أسس خلافة منافسة فى المذهب السنى ، فلم يحاول ، حتى هذا الدور ، حكامُ الاندلس الأمويون أن يدّعوا لأنفسهم زعامةَ العالم الاسلامى التى تمتع بها أجدادهم فى دمشق أيام الفتوحات العربية العظيمة ، واكتفوا بلقب أمير وسلطان وابن خليفة ؛ ولكن عبد الرحمن الثالث ، الذى وصل بالأندلس المسلمة الى مركز أسمى مما كانت عليه قبلا ، قرّر أن يتّخذ لنفسه لقب الخليفة ـ الذى يبدو أن العباسيين فى بغداد لم يعودوا أهلاً لحمله ، فأمر أن يُدعى بخليفة وأمير المؤمنين فى صلاة الجماعة وعلى الوثائق الرسمية ؛ وكأنه نظر نظرة شفقة واستخفاف إلى المقتدر الذى كان يُمثّل

---

١ ـ ص ٣٠ الخلافة ـ سير توماس أرنولد . ترجمة جميل معلى .

أسرة العباسيين والذى كان ما يزال يستعمل ألفاظاً طنّانة كتلك [١] » .

وبعد وفاة المقتدر انتخب أخوه القاهر ليعقبه ، ثم خلع بعد حكم إرهابىّ دام سنتين ففقأت عيناه بابرتين حاميتين حتى الاحمرار وعُذّب ليبوح بالمكان الذى خبأ فيه كنوزه وألقى فى السجن وتُرك هناك مدة إحدى عشرة سنة لإصراره على الكتمان . وبعد أن أفرج عنه وُجد بحالة فقر مدقع يستجدى الصدقات فى أحد الجوامع ، بينما أقيم حفيده على العرش ثم نصّب المتآمرون الراضى عوضاً عنه ، وهو ابن المقتدر المقتول ، وكان آلة عقيمة فى أيدى الوزراء الأقوياء مدة سبع سنوات لا يملك من الخلافة سوى الاسم . ويقال إنه آخر خليفة ألقى خطبة فى صلاة الجمعة . وبعد وفاته أعقبه أخوه المتقى ، ولكن بعد شهور قليلة اضطرته ثورة الجنود الأتراك أن يهرب من عاصمته ويلتجىء إلى الموصل حيث طلب حماية الأمراء الحمدانيين سيف الدولة وناصر الدولة اللذين كانا يتسابقان فى إكرام الشعراء العرب ورجال الأدب فى بلاطهم اللامع فى الموصل وحلب .

وقد اشتهر هذان الأخوان بأعمالهما العسكرية الجليلة ولكنهما اضطرا حالاً إلى التخلى عنه ليراعوا الأمور فى ممتلكاتهم الخاصة .

واضطرت مؤامرة أخرى الخليفة التعيس أن يهرب من بغداد مرة ثانية ، ولكنه سلم نفسه مقهوراً - بعد استغاثات غير مجدية لمختلف الأمراء المسلمين لاسعافه - الى القائد التركى طوزون الذى كان سبباً فى كثير من همومه . ورغماً من أن طوزون استقبله أولاً بمظاهر الاحترام إلا أنه سمل عينيه بالنتيجة بحديدة حامية واضطره إلى التنازل عن الخلافة ونصب المستكفى مكانه . وفى السنة التالية مات طوزون ولكن الخليفة انتقل من يدى سيد إلى آخر وأجبر آنئذ الى الترحيب بالبويهيين فى عاصمته ؛ أولئك

---

١ - ص ٣١ - الخلافة - سير توماس أرنولد

الذين هدّدوا — بتقدّمهم الموفق من جنوب فارس — سلطة الجنود الأتراك التى كانت تخيف سكان العراق منذ أمد طويل . وقد تظاهر الأمير البويهى باحترام الخليفة وتقبل منه ألقاب الشرف ، ولكن القوّة الحقيقية كانت فى أيدى فاتحى العاصمة الاسلامية الحديثة . ثم سملت عينا المستكفى أيضاً [1] .

وهكذا شهد الفارابى فى وقت واحد ثلاثة خلفاء عباسيين أحياء كانوا تقلدوا منصب الخلافة السامى ، وكلهم حرموا نعمة البصر قسراً ، وكلهم سلبوا ثرواتهم وعاشوا فى عماهم على الاحسان وعلى الراتب الضئيل الذى كان يتصدّق به الحاكم الجديد عليهم . راعه ذلك المشهد ، وأخذ يبحث عن حل لمشكلة العالم الاسلامى ، فانكبّ على دراسة جمهورية افلاطون واقتبس منها كثيراً من آرائه السياسية ، وبدأ مدينته الفاضلة بفصل يبحث فى نشأة المجتمع :

« القول فى احتياج الانسان إلى الاجتماع والتعاون : — وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه وفى أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده ، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه . وكل واحد من كل واحد بهذه الحال . فلذلك لا يمكن أن يكون الانسان ينال الكمالَ الذى لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية إلا باجتماع جماعات كثيرة متعاونين ، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه فى قوامه وفى أن يبلغ الكمال . ولهذا كثرت أشخاص الانسان فحصلوا فى المعمورة من الأرض فحدثت منها الاجتماعات الانسانية : منها الكاملة ، ومنها غير الكاملة . والكاملة ثلاث ، عظمى ، ووسطى ، وصغرى . فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها فى المعمورة . والوسطى اجتماع أمة فى جزء من المعمورة . والصغرى اجتماع أهل مدينة فى جزء من مسكن

---

١ — ص ٣٣ الخلافة — سير توماس أرنولد

أمة . وغير الكاملة أهل القرية واجتماع أهل المحلة ، ثم اجتماع فى سكة ثم اجتماع فى منزل . وأصغرها المنزلة والمحلة . والمحلة والقرية هما جميعاً لأهل المدينة . إلا أن القرية للمدينة على أنها خادمة للمدينة . والمحلة للمدينة على أنها جزؤها . والسكة جزء المحلة . والمنزلة جزء السكة . والمدينة جزء مسكن أمة . والأمة جزء جملة أهل المعمورة .

فالخير الأفضل والكمال الأقصى إنما يُنال أولا بالمدينة ، لا بالاجتماع الذى هو أنقص منها .

ولما كان شأن الخير فى الحقيقة أن يُنال بالاختيار والإرادة ، وكذلك الشرور إنما تكون بالإرادة والاختيار ، أمكن أن تجعل المدينة للتعاون على بلوغ بعض الغايات التى هى شرور . فلذلك كل مدينة يمكن أن يُنال بها السعادة .

فالمدينة التى يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التى تُنال بها السعادة فى الحقيقة ، هى المدينة الفاضلة .

والاجتماع الذى به يُتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل .

والأمة التى تتعاون مدنها كلها على ما تُنال به السعادة هى الأمة الفاضلة . وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون ، إذا كانت الأمة التى فيها يتعاونون على بلوغ السعادة [١] » .

والواقع أن بالإنسان حاجة إلى الاجتماع والتعاون . فلولا الحماية والعناية التى ينالها الطفل الحديث الولادة من الأغيار لما عاش . وحماية الجماعة ضرورية له . ولكن الجماعات تقوم بأعمال أخرى كثيرة ، زيادة

---

١ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٧٨

على العناية بالطفل وحمايته . فهى تهذّبه وتثقّفه وتقيّد سلوكه فى كثير من شؤون الحياة وشجونها . وعمل الجماعات الاجتماعية أنها تنقل « الميراث الاجتماعى » من جيل إلى جيل . إن ضغط الثقافة على الفرد يتم على الغالب بوساطة الجماعة . فالطفل يبدأ تلقّن الثقافة من جماعة أسرته . فتكون الأسرة على هذا — كما قال جولدِنْوَيْزَر بحق — « مركز حوالة المدينة[1] ».

ولا تتوقف جلالة الجماعة ومنزلتها على نقل الثقافة فحسب ، فان حياتها ذاتها تترك طوابعها الكثيرة على الفرد . فهى تصقل شخصيته . وتتوقف على الخبرة التى يكتسبها الفرد بين الجماعة أن يكون زعيما أو تابعا ، تعاونيا أو مستقلا ، اجتماعيا أو معتزلا للناس .

وحاجات الانسان الضرورية قليلة العدد ، كالحصول على الطعام وحفظ النسل وتربيته . ومن الطبيعى أن نجد المؤسسات والنظم فى كل الأزمان تدور حول هذه الحاجات .

وهنالك مجموعة من المؤسسات الاجتماعية قد نظمت على أسس اقتصادية ، مثال ذلك الشؤون الصناعية والمالية والزراعية فى المجتمعات الحديثة . أما فى أوائل عهود الانسان فقد كانت النظم الاقتصادية تدور حول جمع الأطعمة وصيد الحيوانات والأسماك . وكان تحضير الطعام وتجهيزه من خصائص الأسرة . ثم نشأت مع الزمن الملكية بشكل الاختصاص الفردى بالألبسة وأدوات الزينة والأثاث والأدوات والآلات والخيول والأنعام وما إلى ذلك . ونشأت قواعد الملكية الفردية . ثم نتج ، عن تقدم التجارة والنقود ، التخصّصُ وتوزيعُ العمل ، بين المؤسسات الاقتصادية .

---

١ — A. Goldenweiser, Early Civilization, p.238-9

وهنالك مجموعة أخرى من المؤسسات الاجتماعية تقوم على أساس الجنس . والاسرة ميدان هذه المجموعة . لقد وُزِّع العمل فى الأسرة منذ القديم فاختُصَّ الرجل بالصيد والحرب حين الحاجة ، واختُصَّت المرأة بالعناية بالأولاد .

ثم نجد مجموعة ثالثة من المؤسسات الاجتماعية قوامها العقيدة . اعتقد الانسان ، منذ القديم ، بأن هناك قوةً تُدبِّرُ هذا الكون ، فأخذ يتقرَّب اليها ويعبدها بشتى الطرق : فنتج عن ذلك وجود أنظمة معينة لكل عمل وحدث يقع فيه الانسان . فهنالك صلوات واحتفالات خاصة لحالات الولادة والزواج والموت والحرب وهكذا . . .

وهنالك مجموعة رابعة من تلك المؤسسات وهى تشتمل على رعاية مصلحة الجماعة كلها . وقد نتج عن هذه المؤسسات فى الأزمنة الحديثة وجود « الدولة » . ولما كانت مصلحة الجماعة كلها تضطرب إبان الحروب ، لذلك فان الحروب قد صقلت نظام الدولة ونمَّته الى حدٍّ بعيد . وأصبح من واجبات الدولة توزيع العدل وحمايةُ الضعيف من القوىّ ومعاقبةُ الأفراد الذين يعيثون فى الأرض فساداً . وقد وسَّع مناطق نفوذ الدولة وإدارتها تقدمُ وسائل النقل والاتصال تقدماً زاد فى عدد الشعوب والعناصر التى تدخل فى حكم الدولة الواحدة .

لقد تضمن بحث الفارابى الذى اقتبسناه آنفاً هذه المجموعات بعينها ؛ وهنالك مجموعات أخرى قد تدخل فيه كأنظمة التعليم والصحة وغيرها ألمع اليها فى صفحات أخرى من كتابه . وعبَّر الفارابى عن الدولة بالمدينة الفاضلة ، ورأى أن الخير والشر يُنالان بالاختيار والإرادة ، ولكن الخير الأفضل والكمال الأقصى إنما يُنال أولاً بالمدينة ، لا بالاجتماع الذى هو أنقص

منها . وهذه هى نظرية « الميراث الاجتماعى [١] » سافرةً ظاهرة .

« والمدينة الفاضلة هى التى يُقصد بالاجتماع فيها التعاون على الاشياء التى تُنال بها السعادة فى الحقيقة . والسعادةُ هى أن تصير نفس الإنسان من الكمال فى الوجود إلى حيث لا تحتاج فى قوامها إلى مادة . والافعال الارادية التى تنفع فى بلوغ السعادة هى الأفعال الجميلة . والاجتماع الذى به يُتعاون على نيل السعادة هو الاجتماعُ الفاضل . والأمةُ التى تتعاون مُدُنها كلها على ما تنال به السعادة ، هى الأمة الفاضلة . وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمة التى فيها يتعاونون على بلوغ السعادة .

وللمدينة الفاضلة أجزاء مختلفة الفطرة ، متفاضلة الهيئات : وفيها إنسان هو رئيس ؛ وآخرون تقرب مراتبهم من الرئيس ؛ وفى كل واحد منهم هيئة وملكة (مكتسبة) يفعل بها فعلا يُقتنى به ما يريد ذلك الرئيس .

وهؤلاء هم أولو المراتب الأول ، ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء . وهؤلاء هم فى الرتبة الثانية .

ودون هؤلاء أيضا من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء .

ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهى إلى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يخدِمون ولا يُخدَمون ، ويكونون فى أدنى المراتب . ويكونون هم الأسفلون [٢] . »

وقد شبه أبو نصر تآلف أعضاء المدينة الفاضلة وتعاونها بانتظام أعضاء البدن وتناسقها فى تأدية وظائفها : « فالبدن الصحيح تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعـــلى حفظها عليه . وهى مختلفة متفاضلة الفطرة

---

١ - A Hand book of Sociology, p.4 [Social Heritage]

٢ - المدينة الفاضلة للفارابى ص ٧٨ - ٨٠

والقوى ، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب ، وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاء لما هو غرض ذلك العضو الرئيس . غير أن أعضاء البدن طبيعية . وأجزاء المدينة ، وإن كانوا طبيعيين ، فان الهيئات التى يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية ، بل إرادية . على أن أجزاء المدينة مفطورون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح بها انسان لشئ دون شئ . غير أنهم ليسوا أجزاء المدينة بالفطر التى لهم وحدها ، بل بالملكات الارادية التى تحصل لها وهى الصناعات وما شاكلها » .

واننا نرى أن الفارابى أصاب بقوله « وأجزاء المدينة وان كانوا طبيعيين ، فان الأفعال التى يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية ، بل ارادية » ففرّق بين ما يسميه المحدثون « البيئة الطبيعية » و « الميراث الاجتماعى » . قالوا :

ان البيئة التى تنمّى فى الانسان قواه المختلفة وتغرس فيه مؤهلاته وكفاءاته هى واسعة عريضة . وفيها العادات والمؤسسات والكتب والاجتماعات المتنوّعة . ولا تمتّع الطبيعة الحيوانات الدنيا بهذه البيئة . انها تولد فى بيئة تتألف من الارض والشمس والسماء والماء والشجر والنبات والحيوانات الأخرى التى تشاطرها تلك البيئة . وهذا ما يسمى « البيئة الطبيعية » . وقد اقتصر بحث علماء الأحياء عليها .

وقد بحث فيها هربرت سپنسر تحت عنوان « البيئة الحية » و « بيئة الجماد » . ويشاطر الانسان الحيوانات الأخرى هذه البيئة .

أما النوع الثانى من البيئة فهى ، التى يستقل بها الإنسان دون باقى الحيوانات . وهى تتألف من الأبنية والآلات والأدوات والكساء والفن والعلم والدين وجميع الأساليب والطرق للقيام بالأعمال التى يمارسها الناس .

وقد سميت هذه البيئة التى ليست نباتاً وحيواناً ، ولا أرضاً وهواء ، بأسماء مختلفة . فأطلقوا عليها « الميراث الاجتماعى » تمييزاً لها عن « الميراث الطبيعى » . ويسمى علماء الاجتماع هذه البيئة « الثقافة » . وهذه العبارة متى استعملت فى علم الاجتماع تضم معنى أوسع من المعنى المحدَّد لها عند رجال الأدب والفن . وان لفظة « التمدن » تصف الثقافة فى أعلى درجاتها [١] .

« أما رئيس المدينة فليس يمكن أن يكون أى انسان اتفق ، لأن الرئاسة انما تكون بشيئين :

الاول — أن يكون كامل العقل قوىَّ الإدراك يوحى الله عز وجل اليه بتوسط العقل الفعّال ، فيكون ما يفيض من الله تبارك وتعالى الى العقل الفعّال يفيضه العقل الفعال الى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد ثم الى قوّته المتخيّلة ، فيكون بما يفيض منه الى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفا ومتعقلا على التمام .

والثانى — أن تكون قوّته المتخيّلة قوية كاملة جداً لا تستولى عليها المحسوسات الواردة اليها من خارج استيلاء يستغرقها بأسرها ، ولا تخدمها للقوة الناطقة بل كان فيها مع اشتغالها بهذين فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التى تخصها ، يفيض العقل الفعّال بصور الجزئيات فتتخيلها القوة المتخيلة وتحاكيها بمحسوسات فى نهاية الجمال والكمال ويصير الانسان بهذا الفيض الى قوّته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون ومخبراً بما هو الآن .

فهذا هو الرئيس الذى لا يرؤسه انسان آخر أصلاً وهو الامام وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة وهو رئيس الأمة الفاضلة ورئيس المعمورة من الأرض كلها ، ولا يمكن أن تصير هذه الحال الا لمن اجتمعت فيه بالطبع

---

١ - A Hand book of Sociology, by Ogborn & Nimkoff Mannheim, p.4

اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها . وهى أن يكون : تـــامّ الأعضاء ، جيّد الفهم والتصوّر لكل ما يقال له فيتلقاه بفهمه على ما يقصده القائل ؛ جيد الحفظ لما يفهمه ، ولما يراه ، ولما يسمعه ، ولما يدركه ؛ جيّد الفطنة ، ذكياً ، إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له ؛ حسن العبارة ، يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يُضمره إبانة تامة ؛ مُحبـــاً للتعلم والاستفادة ؛ غير شرِه على المأكل والمشرب والجماع ؛ مُحباً للصدق وأهله ، مُبغضاً للكذب وأهله ؛ كبير النفس محباً للكرامة ، الدرهمُ والدينارُ وسائرُ أعراض الدنيا هينة عنده ؛ محباً للعدل وأهله ، ومبغضا للجور والظلم وأهلهما ، قوى العزيمة على الشيء الذى يرى أنه ينبغى أن يفعل ، جسوراً عليه مقداما غير خائف ولا ضعيف النفس » .

وليس من شك فى أن أبا نصر نظر فى صفات رسول الله ﷺ فاقتبس منها الاثنتى عشرة خصلة السالفة الذكر . وحصر الرئاسة فيه ﷺ قائلاً : « واجتماع هذه كلها فى إنسان واحد عسيرٌ ، فلذلك لا يوجد من فطر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد والأقلّ من الناس » .

أما الرئيس الثانى ومن يخلفه من الرؤساء فيجب أن تتوفر فى كل منهم ستُّ شرائط : أن يكون حكيماً ؛ أن يكون عالماً حافظاً للشرائع والسنن والسِّير التى دبّرها الاولون للمدينة ، محتذياً بأفعاله كلها حذوَ تلك بتمامها ؛ أن يكون له جودة استنباط فيما لا يحفظ عن السلف فيه شريعةٌ ويكون فيما يستنبطه من ذلك محتذياً حذو الأئمة الأولين ؛ أن يكون له جودةُ رَوِيَّة وقوةُ استنباط لما سبيله أن يعرف فى وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث التى تحدث مما ليس سبيلها أن يسير فيه الأوّلون ويكون متحرِّياً بمـــا يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة ؛ أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين والى ما استنبط بعدهم مما احتذى فيه

حذوهم ؛ أن يكون له جودة ثبات ببدنه فى مباشرة أعمال الحرب ، وذلك أن تكون معه الصناعة الحربية الخادمة والرئيسة [١] . »

وهذه الشروط التى اشترطها أبو نصر لرؤساء المدينة هى فى الواقع مؤهلات الإمامة فى الشريعة الاسلامية الغراء كما بسطها الفقهاء ، ما عدا شرطين ، تجاوز عنهما الفارابى ، وهما شرط النَّسب الذى يحصر الخلافة فى قريش ؛ وشرط الحكمة الذى جعله جزء الرياسة . قال الماوردى :

« وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة : أحدها العدالة على شروطها الجامعة ؛ والثانى العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام ؛ والثالث سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها ؛ والرابع سلامة الأعضاء من نقص يمنع استيفاء الحركة وسرعة النهوض ؛ والخامس الرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح ؛ والسادس الشجاعة والنجدة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو ؛ والسابع النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقادالإجماع عليه [٢] . »

وليس الفارابى هو الوحيد بين علماء المسلمين الذى لم يشترط أن يكون الخليفة قرشيا ، فقد روى الماوردى « أن ضراراً شذّ فجوّزها فى جميع الناس » .

وقد قصد أبو نصر أن يكون الحُكم فى مدينته مطلقا أوتوقراطياً يقوم بأعبائه رئيس واحد ، إن وجد ، « فاذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه تلك الشرائط ، ولكن وجد اثنان ، أحدهما حكيم والثانى فيه الشرائط الباقية ، كانا هما رئيسين فى هذه المدينة ؛ فاذا تفرّقت هذه فى جماعة ، وكانت

---

١ ـ المدينة الفاضلة ، ص ٨٨ - ٨٩

٢ ـ الأحكام السلطانية للماوردى ، ص ٤ ـ ٥

الحكمةُ فى واحد ، والثانى فى واحد ، والثالث فى واحد ، والرابع فى واحد ، والخامس فى واحد ، والسادس فى واحد ، وكانوا متلائمين ، كانوا هم الرؤساءَ الأفاضل . فاذا اتفق فى وقت ما أن لم تكن الحكمةُ جزءَ الرياسة ، وكانت فيها سائر الشرائط بقيت المدينةُ الفاضلة بلا ملك ؛ وكان الرئيسُ القائم بأمر هذه المدينة ليس بملك ، وكانت المدينة تعرض للهلاك [١] » .

« وملوك المدن الفاضلة الذين يتوالون فى الأزمنة المختلفة ، واحداً بعد آخر ، كلهم كنفس واحدة ، وكأنهم ملك واحد يبقى الزمان كله [٢] . »

ولم يبين أبو نصر طريقة تولية الرئيس : أيكون ذلك بالانتخاب أم يكون بالتعيين . مع أن فقهاء المسلمين بحثوا فى ذلك صراحة ونصوا على أن « الإمامة تنعقد من وجهين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد ، والثانى بعهد الإمام من قبل [٣] » .

---

١ ـ المدينة الفاضلة ، ص ٩٠

٢ ـ المدينة الفاضلة ، ص ٩٢

٣ ـ الماوردى ، ص ٤ ، لخص سير توماس أرنولد فى كتابه الخلافة (ص ٣٧) عن شروط الانتخاب والتعيين ما نصه :

« أكد الماوردى متقاضيا عن وقائع التاريخ خلال القرون الأربعة السابقة من التقويم الهجرى أن منصب الخليفة أو الامام هو انتخابى وعدد مؤهلات الناخبين : فيجب أن يكونوا من ذوى السمعة الحسنة والحياة المستقيمة (فيهم العدالة الجامعة) ، ذكوراً بالغين ، ويجب أن يعرفوا الصفات المطلوبة فى الامام (فيهم العلم الذى يتوصل به الى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها) ، وأن يكون لديهم وعى وحكم كافيان ليحكموا باختيارهم (فيهم الرأى والحكمة المؤديان الى اختيار من هو للإمامة أصلح وبتدبير المصالح أقوم وأعرف) ؛ وسعى بأسلوب عبقرى ليلائم نظرية الانتخاب مع ما عرفه من أن كل خليفة تقريبا كان يعين خلفه ، فأوضح أن العلماء لم

وقد شعر أبو نصر بالمركز التابع الذى انحدرت اليه الخلافة وقيام الدول الاسلامية المستقلة التى كانت تتغاضى عن سلطان الخليفة ، وشاهد أن الخلفاء فى زمانه لم يكونوا قادرين على ممارسة أى سلطة فى القضايا الدنيوية مهما تكن ، وإنما اقتصرت وظائفهم على شؤون الدين والعقيدة فقط ، فقسم سكان المدينة الفاضلة مراتب تقصد جميعا بأفعالها غاية الرئيس وتصدر عنه فى حركاتها وسكناتها :

« وكذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطرة متفاضلة الهيئات . وفى كل واحد منها هيئة وملكة تفعل بها فعلا يقتضى به ما هو مقصود ذلك الرئيس :

وهؤلاء هم أولو المراتب الأول ،

ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء . وهؤلاء فى الرتبة الثانية ،

يتفقوا على عدد الناخبين اللازم لمشروعية الانتخاب ، لأن بعضهم تمسك بأن يكون اتفاقاً إجماعياً من كل المسلمين ذوى الأهلية فى كل قسم من العالم الاسلامى ، ولم يكن بالإمكان العمل بانتخاب كهذا فى ظروف الحياة فى ذلك العصر ، فيذكر انتخاب أبى بكر كمثال ، فان أولئك الحاضرين لدى وفاة زعيم الجماعة السابق ﷺ كانوا كافين لتمثيل جمرع المسلمين بكاملهم . والمسكلة الباقية هى عدد الأشخاص الذين يمكن فى حالة كهذه السماح لهم بتمثيل رأى الجماعة بكاملها ؛ فيذكر الماوردى أنه كان خمسة فى انتخاب أبى بكر ، وعين عمر قبل وفاته مجلساً انتخابياً مؤلفاً من ستة ؛ ولكن علماء آخرين ارتأوا بأن ثلاثة أشخاص يكفون ، لمماثلته مع عقد الزواج الذى يمكن أن يقوم به شخص واحد أمام شاهدين ، ويعتبر مع ذلك آخرون ، أن الانتخاب يمكن إعلانه بصوت متفرد . وهكذا توصل الماوردى الى النتيجة هى أنه يحق للخليفة تعيين خليفة . وتمكن بهذا من المحافظة على طابع المؤسسة الانتخابى » .

ودون هؤلاء أيضا من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء .

ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهى الى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يُخدمون ويكونون فى أدنى المراتب ويكونون هم الأسفلون » .

لقد قسم الفارابى المجتمع الى مراتب تُبيِّن مركز الفرد بين الجماعة ، سواء أكان رئيساً أم كان تابعاً . وحصر وظائف الناس فى المدينة على وجه التحقيق . وجعل من وظائف الرئيس الضمنية أن يضع الخطط ويبين الأهداف والمقاصد للمدينة ويصدر الأوامر ويراقب تنفيذها . أى إنه أناط به القيام بوظائف معينة ، أو بعبارة أخرى جعل له صفة معينة حتمت عليه أن يقصد بتصرفاته مصلحة المجموع [١] . ومراتب الفارابى تسمى فى المصطلح الاجتماعى الحديث مراتب قانونية Formolized Statuses لا يهم المجتمع شخصية الأفراد الذين تخلع عليهم « الصفة Rôle » بقدر ما يهمه استمرار الحياة والإدارة اليومية وسيرهما على الوجه الصحيح من أجل المصلحة العامة . ومراتب الفارابى الاجتماعية تكاد تشبه الهرم الأبتر (Truneated Pyramid) شأنها فى ذلك شأن جميع المجتمعات المؤلفة من طبقات أو مراتب اجتماعية ، تقوم أدناها على القاعدة وتنتظم المراتب الأخرى فوقها صُعدا ، الدنيا تحت العليا الى اعلى المراتب . ومما لا شك فيه أن أدنى المراتب فى تقسيم الفارابى كانت طبقة العبيد ، وأن أعلاها كان الخليفة ، ودونه الملوك ، ودونهم الوزراء ، ودونهم العمال ، ودونهم رؤساء الجند ، والجنود ، وجمهور الأمة .

---

١ ـ قال الفقهاء إن التصرف على الرعية منوط بالمصلحة . وقد سمى علماء الاجتماع « التصرف المضاف الى المرتبة أو المركز صفة Rôle »

ولم يحدثنا الفارابي عما ينتظر كل مرتبة من « أنصبة في الحياة Life chances » مع أن المفهوم ضمناً أن لأفراد كل مرتبة حقوقاً متماثلة في « أنصبة الحياة » . ويُقصد « بأنصبة الحياة » التمتع بطيبات العيش ، كالحرية ، ومستوى المعيشة العالي ، والراحة والاحترام ، وكل الأشياء الأخرى التي يقدر لها المجتمع قيمة عالية . وأهل أعلى المراتب ، أو المتنفذون ، هم — كما يقول لاسويل[1] — « الذين يحصلون على أكبر قسط مما يمكن الحصول عليه » . ولكن أبا نصر بيّن أن أهل الصناعة الواحدة يتفاضلون بالكمية ، كأن « يكون كاتبان مثلاً علمَ أحدهما من صناعة الكتابة أكثر ، وآخر احتوى من أجزائها على أشياء أقل : مثل أن هذه الصناعة تلتئم باجتماع علم شيء من اللغة وشيء من الخطابة وشيء من جودة الخط وشيء من الحساب ، فيكون بعضهم قد احتوى من هذه على جودة الخط مثلاً ، وعلى شيء من الخطابة ؛ أو آخر احتوى على اللغة وعلى شيء من الخطابة وعلى جودة الخط ، والآخر على الأربعة كلها » . فهؤلاء مع أنهم من مرتبة واحدة يجب أن لا يتساووا في « أنصبة الحياة » طبعاً ؛ بل ينال كل منهم نصيبا بمقدار كفاءته ومؤهلاته .

ولنبحث الآن في القسم الثالث من الكتاب وهو مضادّات المدينة الفاضلة .

لقد وضع الفارابي الأسس لإدارة الحكم في العالم الاسلامي وبيّن أفضلَ الأنظمة في رأيه لاقامة حكم عادل يتوخّى مصلحة المجتمع في أيامه ، وبيّن أن تصرُّف الرئيس يهدف الى بلوغ السعادة للامة جميعا ، ولما لم تكن الأحوال في الامبراطورية الاسلامية تتلاءم مع هذه الأهداف ، أفرد أبو

---

١ — Harlod Lasswell « How gets, What, When, and How (p.3,1936

نصر الفصول الأخيرة من كتابه فى وصف الحياة العامة فى البلاد الاسلامية فى أيامه مُتستّراً وراء تعريفات وضعها لما سماه مضادّات المدينة الفاضلة . فالناس فى زمانه « لم يعرفوا السعادة ولا خطرت ببالهم ، إن رشدوا إليها لم يقيموها ، ولم يعتقدوها ، وإنما عرفوا من الخيرات بعض هذه التى هى مظنونة فى الظاهر أنها خيرات من التى تظن أنها هى الغايات فى الحياة وهى : سلامة الأبدان ، واليسار والتمتع باللذات ، وأن يكون المرء مخلى هواه ، وأن يكون مكرماً ، ومعظماً . فكل واحد من هذه سعادة عند أهل المدينة الجاهلة » . ثم يجد من الناس فى زمانه « من قصدهم الاقتصار على الضرورى مما به قوام الأبدان من المأكول والمشروب والملبوس والمسكون والمنكوح والتعاون على استفادتها » . ومنهم من « يتعاونون على بلوغ اليسار والثروة ولا ينتفعون باليسار فى شىء آخر ، ولكن على أن اليسار هو الغاية فى الحياة . ومنهم من يتمتعون باللذة من المأكول والمشروب والمنكوح ، وبالجملة اللذة من المحسوس والمتخيل وايثار الهزل واللعب بكل وجه ومن كل نحو . ومنهم من يتعاونون على أن يصيروا مكرمين ممدوحين مذكورين مشهورين بين الأمم مجدين معظمين ، قاهرين لغيرهم ، أحراراً يعمل كل واحد منهم ما شاء ، لا يمنع هواه فى شىء أصلا » . والأمة الاسلامية فى عهده كانت « آراؤها الآراء الفاضلة وهى تعلم السعادة والله عز وجل والعقل الفعال وكل شىء سبيله أن يعلمه أهل المدينة الفاضلة ويعتقدوه ، ولكن أفعالهم أفعال أهل المدينة الجاهلة » . وكل واحد من ملوكهم انما يدير المدينة التى هو مسلط عليها ليحصل هواه وميله » . والخليفة ما يزال نظرياً رئيس الدولة الاسلامية ، وكيفما قدر لملك أن يتقلد السلطة ، فانه كان يجد من السياسة أن يعترف للخليفة بأنه المصدر النظرى لجميع السلطات ، كما فعل بنو بويه فى أيام الفارابى ـ فانهم بالرغم من أن احتلالهم لبغداد كان

أوج توسعهم وممتلكاتهم وبالرغم من أن الخليفة العباسي كان أسيراً في محبتهم فقد وجدوا من السياسة تمويه استقلالهم التام بمظاهر من الخضوع ، وإعطاء حكمهم مظهراً من الشرعية بقبولهم الألقاب منه . وهذا هو خلاصة وصفه لحياة المجتمع الاسلامي وملوكه في أيامه .

بقي علينا أن نبحث في الاستعباد والعدل كما ذكرهما الفارابي :

« تروم كل طائفة من الناس أن تسلب جميع ما للأخرى من (حقوق وطيبات) وتجعل ذلك لنفسها ، ويكون كل واحد من كل واحد بهذه الحال ؛ فالقاهرة منها للأخرى على هذه هي الفائزة وهي المغبوطة وهي السعيدة . وهذه الاشياء هي التي في الطبع ، إما في طبع كل إنسان أو في طبع كل طائفة ، وهي تابعة لما عليه طبائع الموجودات الطبيعية . فما في الطبع هو العدل ؛ فالعدل إذاً التغالب ، والعدلُ هو أن يُقهر ما اتفق منها . والمقهور إما أنه قُهر على سلامة بدنه أو هلك وتلف . وانفرد القاهر بالوجود ، أو قُهر على كراهته وبقي ذليلا ومستعبداً ، تستعبده الطائفة القاهرة ويفعل ما هو الأنفع للقاهر في أن ينال به الخير الذي عليه الغالب ويستديم به . فاستعباد القاهر للمقهور هو أيضاً من العدل ، وأن يفعل المقهور ما هو الأنفع للقاهر هو أيضا عدل . فهذه كلها هي العدل الطبيعي وهي الفضيلة ، وهذا هو العدل الطبيعي في رأي أهل المدينة الجاهلة والضالة [1] . »

إن هذه هي النظرية الرومانية في الرق والاستعباد . قالوا : « إن هنالك عقداً ضمنياً بين الغالب والمغلوب يجعل للغالب حق تملك عدوه المقهور كعبد في مقابل الابقاء على حياته من القتل » .

فالعدل إذاً — على ما نقل الفارابي — هو التغالب . « وأما سائر ما

---

١ ـ آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ١١٢

يسمى عدلاً مثلُ مافى البيع والشراء ومثل ردّ الودائع . . . فان مستعمله إنما يستعمله أولا لأجل الخوف والضعف وعند الضرورة الواردة من خارج » . وذلك أن تكون طائفتان تتداولان القهر فيطول بينهما ثم تصطلحان وتشترط كل واحدة منهما أنها لا تروم نزع مافى يدى الأخرى ، إلا بشرائط وهى الموضوعة فى البيع والشراء والتى نشأت من الخوف والضعف . وقد يضطر شيء وارد من خارج الطائفتين أن تأتلفا موقتاً وتجتمعا ريث الحاجة فتتبادلان البيع والشراء فاذا زال ذلك الوارد من خارج تنافرتا وافترقتا ووقعتا فى الداء السبعى من آراء الانسانية .

تلك هى مدينة الفارابى الفاضلة ، وأولئك هم أهلها الذين لهم أشياء مشتركة يعلمونها ويفعلونها ، وأشياء أخرى من علم وعمل ـ تخص كل رتبة وكل فرد منهم . وغاية تلك الأشياء جميعا إبلاغهم السعادة فى هذه الدنيا وفى الآخرة .